

الكتاب الثالث

الخلافة والحكومة في التاريخ

الباب الأول

الوحدة الدينية والعرب

ليس الاسلام ديناً خاصاً بالعرب — العربية والبربر — اتحاد
العرب الديني مع اهتمامهم السياسي — الظلمة الاسلام دينية لا سياسية —
ضعف التبليغ السياسي عند العرب — ايام النبي — انتهاء الرعاضة بموت
الرسول عليه السلام — لم يسم النبي (صلى الله عليه وسلم) خليفة من بعده — مذهب
الشيعة في استخلاف علي — مذهب جماعة في استخلاف أبي بكر

(١) الاسلام كما عرفت دعوة سامية ، أرسلها الله لخير هذا العالم
كله ، شرقيه وغربيه ، عربيه وأعجميه ، رجاله ونسائه أغنيائه
وفقرائه ، عالميه وجهلائه هو وحدة دينية ، أراد الله أن يربط بها البشر ،
وأن تشمل أقطار الارض كلها ، وما كان الاسلام دعوة عربية ، ولا
وحدة عربية ، ولا ديناً عربياً . وما كان الاسلام ليصرف فضلاً لأمة على
أمة ، ولا للغة على لغة ، ولا لقطر على قطار ، ولا لزمن على زمن ، ولا
لجيل على جيل ، إلا بالتقوى . ذلك على رغم ما ترى ، من أن النبي عليه
السلام كان عربياً ، وكان يحب العرب بالطبع ، ويثنى عليهم ، وكان
كتاب الله عربياً مبيناً

(٢) كان لا بد لدعوة الاسلام أن تخرج الى هذا الوجود، وأن تبرز حقيقة ثابتة بين حقائق هذا الكون، وأن يحملها عن جانب القدس الأعلى رسول يختاره الله تعالى، ليبلغها إلى الناس

ولقد رضي الله جل شأنه، وتعالى حكمه، أن يختار رسوله لتلك الدعوة من بين القبائل العربية دون غيرها، وأن يختاره في العرب من بين ولد اسماعيل، وأن يختاره من بين ولد اسماعيل في كنانة، وأن يختاره في كنانة من قريش، وأن يختاره في قريش من بني هاشم، وأن يختار من بني هاشم محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم
لله جل شأنه حكمة في ذلك بالغة، قد نعرفها وقد لا نعرفها

«وَرَبَّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ، وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ»^(١)

كتاب عربي، ورسول عربي، فلا مناص بالطبع من أن تبدأ دعوة الاسلام بين العرب، قبل أن تصل إلى غيرهم. ولا مناص بالطبع من أن يكون العرب أول من تشق آذانهم دعوة ذلك البشير النذير، وأول من يهيب بهم ذلك الداعي إلى الله، وأول من يحاول أن يجمعهم على الهدى وكذلك بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة بين عشيرته

الأقربين، ثم بين قومه العرب، وما زال بهم، يؤيده نصر الله، حتى أتوا لدعوته خاضعين. وكانوا تحت زعامة ذلك الرسول الأمين، أول داخل في وحدة الدين

(٣) البلاد العربية ، كما تعرف ، كانت تحوى أصنافاً من العرب مختلفة الشعوب والقبائل ، متباينة اللهجات ، متناثرة الجهات ، وكانت مختلفة أيضاً فى الوحدات السياسية ، فمنها ما كان خاضعاً للدولة الرومية ومنها ما كان قائماً بذاته مستقلاً

كل ذلك يستتبع ، بالضرورة ، تبايناً كبيراً بين تلك الامم العربية ، فى مناهج الحكم ، وأساليب الادارة ، وفى الآداب والعادات ، وفى كثير من مرافق الحياة الاقتصادية والمادية

هذه الامم المتناثرة قد اجتمعت كلها فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، حول دعوة الاسلام ، وتمت لوائه ، فأصبحوا بنعمة الله اخواناً ، تربطهم وشيجة واحدة من الدين ، ويضهم سياج واحد ، من زعامة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن عطفه ورحمته ، وصاروا أمة واحدة ، ذات زعيم واحد ، هو النبي عليه السلام

تلك الوحدة العربية التى وجدت زمن النبي عليه السلام لم تكن وحدة سياسية بأى وجه من الوجوه . ولا كان فيها معنى من معانى الدولة والحكومة ، بل لم تعد أبداً أن تكون وحدة دينية خالصة من شوائب السياسة . وحدة الايمان والمذهب الدينى ، لا وحدة الدولة ومذاهب الملك

(٤) يدلك على هذا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فما عرفنا انه تعرض لشيء من سياسة تلك الامم الشتيّة ، ولا غير شيئاً من أساليب الحكم عندهم ، ولا مما كان لكل قبيلة منهم من نظام إدارى أو قضائى ، ولا حاول أن يمس ما كان بين تلك الامم بعضها مع بعض ، ولا ما كان

بينها وبين غيرها ، من صلات اجتماعية أو اقتصادية ، ولا سمعنا انه عزل
واليها ، ولا عين قاضياً ، ولا نظم فيها عسكياً ، ولا وضع قواعد لتجاراتهم
ولا لزراعاتهم ولا لصناعاتهم . بل ترك لهم - عليه السلام - كل الشئون ،
وقال لهم أنتم أعلم بها ، فكانت كل أمة ومالها ، من وحدة مدنية وسياسية ،
وما فيها من فوضى أو نظام ، لا يربطهم إلا ما قلناه ، من وحدة الاسلام
وقواعده وآدابه

ربما أمكن إن يقال ، أن تلك القواعد والآداب والشرائع ، التي
جاء بها النبي عليه السلام ، للامم العربية ولغير الامم العربية أيضاً ، كانت
كثيرة ، وكان فيها ما يمس إلى حد كبير أكثر مظاهر الحياة في الامم ،
فكان فيها بعض أنظمة للعقوبات ، وللجيش ، والجهاد ، والبيع والمداينة
والرهن ، والآداب الجلوس والملثى والحديث ، وكثير غير ذلك . فمن
جمع العرب على تلك القواعد الكثيرة ، ووجد بين مرافقهم وآدابهم
وشرائعهم الى ذلك الحد الواسع الذي جاء به الاسلام ، فقد وحد أنظمتهم
المدنية وجعلهم بالضرورة وحدة سياسية ، فقد كانوا إذن دولة واحدة ،
وكان النبي عليه السلام زعيمها وحاكمها

ولكنك إذا تأملت ، وجدت ان كل ما شرعه الاسلام ، وأخذ به
النبي المسلمون ، من أنظمة وقواعد وآداب لم يكن في شيء كثير ولا قليل
من أساليب الحكم السياسي ، ولا من أنظمة الدولة المدنية ، وهو بعد
إذا جمعته لم يبلغ أن يكون جزءاً يسيراً مما يلزم لدولة مدنية من أصول
سياسية وقوانين

ان كل ما جاء به الاسلام من عقائد ومعاملات ، وآداب وعقوبات ، فانما هو شرع ديني خالص لله تعالى ، ولمصلحة البشر الدينية لا غير . وسيان بعد ذلك أن تتضح لنا تلك المصالح الدينية أم تخفى علينا ، وسيان أن يكون منها للبشر مصلحة مدنية أم لا ، فذلك ما لا ينظر الشرع السماوي اليه ، ولا ينظر اليه الرسول

والعرب وإن جمعهم شريعة الاسلام لم يزالوا يومئذ على ما عرفت من تباين في السياسة وفي غيرها من مظاهر الحياة المدنية والاجتماعية والاقتصادية ، ويساوى ذلك أن تقول ، انهم كانوا دولاً شتى ، على قدر ما تسمح به حياة العرب يومئذ من معنى الدولة والحكومة

تلك حال العرب يوم لحق عليه السلام بالرفيق الاعلى . وحدة دينية عامة من تحتها دول تامة التباين إلا قليلاً . ذلك الحق لا ريب فيه قد نخاف أن يخفى عليك أمر ذلك التباين ، الذي نقول إنه كان بين أمم العرب زمن النبي عليه السلام ، وأن تخدعك تلك الصورة المتسجمة التي يحاول المؤرخون أن يضعوها لذلك العصر . فاعلم أولاً : أن في فن التاريخ خطأ كثيراً ، وكم يخطئ التاريخ وكم يكون ضلالاً كبيراً

واعلم ثانياً : انه في الحق أن كثيراً من تنافر العرب وتباينهم قد تلاشت آثاره ، بما ربط الاسلام بين قلوبهم ، وما جمعهم عليه من دين واحد ، ومن أنظمة وآداب مشتركة ، واذكر ، ثالثاً : ما أسلفنا لك الإشارة اليه ، من أثر الزعامة الدينية التي كانت للرسول عليه السلام . فلا عجب إذن أن يكون تباين الامم العربية قد وهت آثاره ، وخفيت

مظاهره ، وخفت حدته ، وذهبت شدته . « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فآلف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها » (١)

ولكن العرب على ذلك ما برحوا أمما متباينة ، ودولا شتى . كان ذلك طبيعيا ، وما كان طبيعيا فقد يمكن أن تخفف حدته ، وتقلل آثاره ، ولكن لا يمكن التخلص منه بوجه من الوجوه

لم يكده عليه السلام يلحق بالرفيق الأعلى حتى أخذت تبدو جليلة واضحة أسباب ذلك التباين بين أمم العرب ، وعادت كل أمة منهم تشعر بشخصيتها المتميزة ، ووجودها المستقل عن غيره ، وأوشكت أن تنتقض تلك الوحدة العربية ، التي تمت في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، « وارتد أكثر العرب ، إلا أهل المدينة ومكة والطائف ، فانه لم يدخلها ردة » (٢)

(٦) كانت وحدة العرب كما عرفت وحدة إسلامية لا سياسية ، وكانت زعامة الرسول فيهم زعامة دينية لا مدنية ، وكان خضوعهم له خضوع عقيدة وإيمان ، لا خضوع حكومة وسلطان ، وكان اجتماعهم حوله اجتماعا خالصا لله تعالى ، يتلقون فيه خطرات الوحي ، ونفحات السماء ، وأوامر الله تعالى ونواهيه « وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ »

تلك زعامة كانت لحمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ،

ليست لشخصيته ولا لنسبه ولكن لأنه رسول الله « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ
الْهَوَىٰ » ^(١) بل عن الله تعالى وبواسطة ملائكته المكرمين . فإذا
ما لحق عليه السلام بالملائكة الأعلى لم يكن لأحد أن يقوم من بعده ذلك
المقام الديني ، لأنه كان عليه السلام « خاتم النبيين » ^(٢) وما كانت رسالة
الله تعالى لتورث عن الرسول ، ولا لتؤخذ منه عطاء ولا توكيلا
(٧) وقد لحق صلى الله عليه بالرفيق الأعلى من غير أن يسمى
أحدًا يخلفه من بعده ، ولا أن يشير إلى من يقوم في أمته مقامه
بل لم يشير عليه السلام طول حياته إلى شيء يسمى دولة اسلامية ،
أو دولة عربية

وحاشا لله ، ما لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى إلا بعد أن
أدى عن الله تعالى رسالته كاملة ، وبين لأُمته قواعد الدين كله ، لا لبس
فيها ولا ابهام ، فكيف — إذا كان من عمله أن ينشئ دولة — يترك أمر
تلك الدولة مبهما على المسلمين ، ليرجعوا سريعا من بعده حيارى يضرب
بعضهم رقاب بعض ! وكيف لا يتعرض لأمر من يقوم بالدولة من
بعده . وذلك أول ما ينبغي أن يتعرض له بناء الدول قديما وحديثا
كيف لا يترك للمسلمين ما يهديهم في ذلك ! وكيف يتركهم عرضة لتلك
الحيرة القاعة السوداء التي غشيتهم وكادوا في غسقتها يتناحرون ، وجسد
النبي بينهم لما يتم تجميذه ودفنه !

(٨) واعلم أن الشيعة جميعا منفقون على أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قد عين عليا رضى الله تعالى عنه للخلافة على المسلمين من بعده .

ولا نريد أن نقف بك عند مناقشة ذلك الرأي ، فإن حظه من النظر العالمي قليل لا ينبغي أن يلتفت إليه

قال ابن خلدون: إن النصوص التي « ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهاذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة »^(١)

(٩) وقد ذهب الامام بن حزم الظاهري الى رأى طائفة قالت إن رسول الله تعالى نص على استخلاف أبي بكر بعده على أمور الناس نصاً جلياً، لاجتماع المهاجرين والانصار على أن سمّوه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعني الخليفة في اللغة هو الذي يستخلفه، لا الذي يخلفه دون أن يستخلفه هو، لا يجوز غير هذا البتة في اللغة بلا خلاف^(٢) الخ وقد أطل في ذلك

والذهاب مع هذا الرأي تعسف لا نرى له وجهاً صحيحاً . ولقد راجعنا ما تيسر لنا من كتب اللغة فما وجدنا فيها ما يعضد كلام الامام ابن حزم، ثم وجدنا اجماع الرواة على اختلاف الصحابة في بيعه أبي بكر، وامتناع أجلة منهم عنها، وقول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه معتذراً عما قاله^(٣) يوم قبض الرسول صلى الله عليه وسلم « أيها الناس

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٦

(٢) الفصول في الملل والاهواء والنحل ج ٤ ص ١٠٧ وما بعدها .

(٣) لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر بن الخطاب فقال « إن رجلاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي، وإن رسول الله والله مات، ولكنه ذهب الى ربه، كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه اربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات، والله لبرجع من رسول الله فليقطعن ايدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات اهتار يخ الطبري ج ٣ ص ١٩٧

إني قد كنت قلت لكم بالامس مقالة ما كانت إلا عن رأيي، وما وجدتها
في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،
ولكني قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا.
وان الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله، فان اعتصمتم به
هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب
رسول الله، وتاني لثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه»^(١)

وجدنا ذلك ووجدنا كثيراً غيره فعلمنا أن الذهاب إلى أن النبي
صلى الله عليه وسلم قد بين أمر الخلافة من بعده رأي غير وجيه، بل الحق
أنه صلى الله عليه وسلم ما تعرض لشيء من أمر الحكومة بعده، ولا
جاء للمسلمين فيها بشرع يرجعون إليه

وما لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى إلا من بعد ما كمل الدين، وتمت
النعمة ورسخت في حقيقة الوجود دعوة الإسلام، ويومئذ مات عليه الصلاة
والسلام، وانتهت رسالته، وانقطعت تلك الصلة الخاصة التي كانت بين
السماء والأرض في شخصه الكريم عليه السلام

الباب الثاني الدولة العربية

الزعامة بعد النبي عليه السلام إنما تكون زعامة - يابيه - أمر الإسلام
في العرب - نشأة الدولة العربية - اختلاف العرب في البيعة - :

(١) زعامة النبي عليه السلام كانت ، كما قلنا ، زعامة دينية ، جاءت
عن طريق الرسالة لا غير . وقد انتهت الرسالة بموته صلى الله عليه وسلم
فانتهت الزعامة أيضاً ، وما كان لاحد أن يخلفه في زعامته ، كما انه لم يكن
لاحد أن يخلفه في رسالته

فان كان ولا بد من زعامة بين أتباع النبي عليه السلام بعد وفاته ،
فإنما تلك زعامة جديدة غير التي عرفناها لرسول الله صلى الله
عليه وسلم

طبيعي ومعقول الى درجة البدهة أن لا توجد بعد النبي زعامة
دينية ، وأما الذي يمكن أن يتصور وجوده بعد ذلك فإنما هو نوع من
الزعامة جديد . ليس متصلاً بالرسالة ولا قائماً على الدين ، هو اذن نوع لا ديني
وإذا كانت الزعامة لا دينية فهي ليست شيئاً أقل ولا أكثر من
الزعامة المدنية أو السياسية ، زعامة الحكومة والسلطان . لا زعامة الدين
وهذا الذي قد كان

(٢) رفعت الدعوة الإسلامية شأن الشعوب العربية من جهات
شتى ، ولم يكن إلا ريثما أهاب بهم الداعي الى الاسلام ، حتى استجبالوا

أمة واحدة من خير الأمم في زمانهم ، واستعدوا بمثل ما يستعد به شعوب
البشر لأن يكونوا سادة ومستعمرين

عقيدة صافية من دنس الشرك ، وإيمان راسخ في أعماق النفس ،
وأخلاق هذبها رسول الله ، وذكاء أئمنته الفطر السليمة ، ونشاط أمدتهم
به الطبيعة ، ووحدة في الله قاربت منهم ما تباعد ، ولا عمت ما تبين ،
وجعلتهم في دين الله اخواناً . ذلك شأن العرب يوم مات رسول الله عليه
الصلاة والسلام

شعب ناهض كالعرب يومئذ لا يمكن إذا انحلت عنه زعامة النبوة
أن يعود راضياً ، كما كان ، أمماً جاهلية ، وشعوباً همجية ، وقبائل متعادية ،
ووحدات مستضعفة ،

إذا هياً الله لامة أسباب القوة والغلبة فلا بد أن تقوى ولا بد أن
تغلب ، ولا بد أن تأخذ حظها من الوجود كاملاً غير منقوص ، فلا بد
إذن أن تقوم دولة العرب ، كما قامت من قبلها دول وقامت من بعدها دول
(٣) لم يكن خافياً على العرب أن الله تعالى قد هياً لهم أسباب الدولة ، ومهد لهم
مقدماتها ، بل ربما كانوا قد أحسوا بذلك من قبل أن يفارقهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، ولكنهم حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذوا
من غير شك يتشاورون في أمر تلك الدولة السياسية ، التي لم يكن لهم مناص
من أن يبنوها على أساس وحدتهم الدينية التي خلفها فيهم النبي عليه السلام
« وما كانت نبوة إلا تناسخها ملوك جبرية »^(١)

(١) أي الاتحجر الملوك بعدها اه اناس البلاغة

كانوا يومئذ إنما يتشاورون في أمر مملكة تقام ، ودولة تشاد ،
وحكومة تنشأ لإنشاء . ولذلك جرى على لسانهم يومئذ ذكر الامارة
والأمراء ، والوزارة والوزراء ، وتذاكر والقوة والسيف ، والعز والثروة ،
والعدد والمنعة ، والبأس والنجدة . وما كان كل ذلك إلا خوفاً في الملك ،
وقياماً بالدولة . وكان من أثر ذلك ما كان من تنافس المهاجرين والانصار
وكبار الصحابة بعضهم مع بعض ، حتى تمت البيعة لابي بكر ، فكان هو
اول ملك في الاسلام

وإذا أنت رأيت كيف تمت البيعة لابي بكر ، واستقام له الامر ،
تبين لك انها كانت بيعة سياسية ملكية ، عليها كل طوابع الدولة المحدثه
وانها انما قامت كما تقوم الحكومات ، على اساس القوة والسيف

تلك دولة جديدة انشأها العرب ، فهي دولة عربية وحكم عربي ،
ولكن الاسلام كما عرفت دين البشرية كلها ، لا هو عربي ولا هو اعجمي .
كانت دولة عربية قامت على اساس دعوة دينية . وكان شعارها
حماية تلك الدعوة والقيام عليها . اجل ولعلها كانت في الواقع ذات اثر
كبير في أمر تلك الدعوة . وكان لها عمل غير منكور في تحول الاسلام
وتطوره . ولكنها على ذلك لا تخرج عن أن تكون دولة عربية ، أيدت
سلطان العرب . ودرجت مصالح العرب . ومكنت لهم في أقطار الأرض ،
فاستعمروها استعماراً . واستغلوا خيرها استغلالاً . شأن الامم القوية التي
تتمكن من الفتح والاستعمار

(٤) كان ذلك امراً مفهوماً للمسلمين حينما كانوا يتآمرون في السقيفة

عمن يولونه امرهم . وحين قال الانصار المهاجرين « منا امير ومنكم امير »
 وحين يجيبهم الصديق رضي الله عنه « منا الامراء ومنكم الوزراء »^(١)
 وحين ينادى ابو سفيان « والله اني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم . يا آل
 عبد مناف . فيم أبو بكر من أموركم ؟ اين المستضعفان ! اين الأذلان !
 على والعباس !

وقال يا أبا حسن ، أبسط يدك حتى أبايعك . فأنى على عليه . فجعل
 يتمثل بشعر المتلمس هـ

ولن يقيم على ضيم يُراد به ألا الأذلان عيّرُ الحي والوتد
 هذا على الحسف مربوط برهته وذا يشج فلا يرثي له أحد^(٢)

وحين سعد بن عبادة رضى الله عنه يرفض البيعة لابى بكر وهو
 يقول : والله حتى أرميكم بما فى كنانتي من نبلي ، واخضب سنان رحي ،
 واضربكم بسيفي ما ملكت يدي . وأقاتلكم بأهل بيتي . ومن أطاعني من
 قومي . فلا أفعل وايم الحق . لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم
 حتى أعرض على ربي وأعلم ما حسابي . فكان سعد لا يصلي بصلاتهم
 ولا يجمع معهم ، ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم . فلم يزل كذلك حتى
 هلك ابو بكر رحمه الله^(٣)

كان معروفًا للمسلمين يومئذ أنهم إنما يقدمون على إقامة حكومة
 مدنية دنيوية . لذلك استحلوا الخروج عليها . والخلاف لها . وهم يعلمون .

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٩٧ (٢) منه ص ٢٠٣ وما بعدها

(٣) منه ص ٢١٠

أنهم إنما يختلفون في أمر من أمور الدنيا . لا من أمور الدين . وأنهم إنما يتنازعون في شأن سياسي . لا يمس دينهم . ولا يزعمون لإيمانهم .

وما زعم أبو بكر ولا غيره من خاصة القوم أن إمامة المسلمين كانت مقاماً دينياً . ولا أن الخروج عليها خروج على الدين . وإنما كان يقول أبو بكر « يا أيها الناس إنما أنا مثلكم ، وإنني لا أدرى . لعليكم ستكلفوني ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق . إن الله اصطفى محمداً على العالمين ، وعصمه من الآفات . وإنما أنا متبع ولست مبتدعاً » (١)

ولكن اسباباً كثيرة وجدت يومئذ قد ألفت على أبي بكر شيئاً من الصبغة الدينية ، وخيلت لبعض الناس أنه يقوم مقاماً دينياً ، ينوب فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك وجد الزعم بأن الإمامة على المسلمين مركز ديني ، ونيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإن من أهم تلك الأسباب التي نشأ عنها ذلك الزعم بين المسلمين ما لقب به أبو بكر من أنه (خليفة رسول الله)

الباب الثالث

الخلافة الإسلامية

ظهر لقب (خليفة رسول الله) - المعنى الحقيقي للخلوة إلى بكر عن
الرسول - سبب اختيار هذا اللقب - تسميتهم الخوارج على إلى بكر
بالمتردين - لم يكن الخوارج كلهم مرتدين - ما نعو الرقة - هروب
سياسة لا دينية - قد وجر حقيقة مرتدين - اضطر إلى بكر الدينية -
يسوع الاعتقاد بأنه الخلوة مقام ديني - ترويح المالك لزلزال الاعتقاد -
للخلوة في الدين .

(١) لم نستطع أن نعرف على وجه أكيد ذلك الذي اخترع لابي
بكر رضى الله عنه لقب خليفة رسول الله ، ولكننا عرفنا أن أبا بكر قد
أجازه وارتضاه

ووجدنا انه استهل به كتبه الى قبائل العرب المرتدة ، وعنده الى
أمراء الجنود ، ولعلها اول ما كتب ابو بكر ، ولعلها اول ما وصل اليها
محتويا على ذلك اللقب ^(١)

(٢) لا شك في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان زعيما للعرب
ومناطق وحدتهم . على الوجه الذي شرحنا من قبل . فاذا قام ابو بكر من
بعده ملكا على العرب ، جماعا لوحدتهم ، على الوجه السياسي الحادث ،
فقد ساع في لغة العرب ان يقال إنه ، بهذا الاعتبار ، خليفة رسول الله ،
كما يسوغ أن يسمى خليفة باطلاق ، لما عرفت في معنى الخلافة ، فابو بكر

كان اذن بهذا المعنى ، خليفة رسول الله ، لا معنى لخلافته غير ذلك

(٣) ولهذا اللقب روعة ، وفيه قوة ، وعليه جاذبية ، فلا غرو أن يختاره الصديق ، وهو الناهض بدولة حادثة ، يريد أن يضم أطرافها بين أعاصير من الفتن ، وزوابع من الالهواء العاصفة المتناقضة ، وبين قوم حديثي العهد بجاهلية ، وفيهم كثير من بقايا العصبية ، وشدة البداوة ، وصعوبة المراس . لكنهم كانوا حديثي عهد برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخضوع له ، والالتقياد التام لكلمته ، فهذا اللقب جدير بأن يكبح من جماهم ، ويُلين بعض ما استعصى من قيادهم . ولعله قد فعل .

ولقد حسب نفر منهم أن خلافة أبي بكر للرسول صلى الله عليه وسلم . خلافة حقيقية ، بكل معناها ، فقالوا إن أبا بكر خليفة محمد ، وكان محمد خليفة الله ، فذهبوا يدعون أبا بكر خليفة الله ، وما كانوا يكتنون مخطئين في ذلك لو أن خلافة الصديق للنبي عليه السلام كانت على المعنى الذي فهموه ولا يزال يفهمه كثير غيرهم الى الآن . ولكن أبا بكر غضب لهذا اللقب ، وقال « لست خليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله » ^(١)

(٤) حمل ذلك اللقب جماعة من العرب والمسلمين على أن ينقادوا لإمارة أبي بكر اتقياداً دينياً ، كاتقيادهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يرعوا مقامه الملوكي بما يجب أن يرعوا به كل ما يمس دينهم . لذلك كان الخروج على أبي بكر في رأيهم خروجاً على الدين ، وارتداداً عن الاسلام

والراجع عندنا ان ذلك هو منشأ قولهم ان الذين رفضوا إطاعة أبي بكر كانوا مرتدين ، وتسميتهم حروب أبي بكر معهم حروب الردة ،
(٥) ولعل جميعهم لم يكونوا في الواقع مرتدين ، كفروا بالله ورسوله ، بل كان فيهم من بقى على اسلامه ، ولكنه رفض أن ينضم الى وحدة أبي بكر ، لسبب ما ، من غير أن يرى في ذلك حرجا عليه ، ولا غضاظة في دينه . وما كان هؤلاء من غير شك مرتدين ، وما كانت محاربتهم لتكون باسم الدين . فان كان ولا بد من حربهم فانما هي السياسة ، والدفاع عن وحدة العرب ، والدود عن دولتهم .

وقد وجدنا أن بعض من رفض بيعة أبي بكر ، بعد أن تمت له البيعة من المسلمين ، كعلي ابن أبي طالب ، وسعد بن عباد ، لم يعاملوا معاملة المرتدين ، ولا قيل ذلك عنهم .

(٦) ولعل بعض أولئك الذين حاربهم أبو بكر لانهم رفضوا أن يؤدوا اليه الزكاة ، لم يكونوا يريدون بذلك أن يرفضوا الدين ، وأن يكفروا به ، ولكنهم لا غير رفضوا الاذعان لحكومة أبي بكر ، كما رفض غيرهم من جلة المسلمين ، فكان بديهيًا أن يمنعوا الزكاة عنه ، لانهم لا يعترفون به ، ولا يخضعون لسلطانه وحكومته

كم نشعر بظامة التاريخ وظلمه ، كلما حاولنا أن نبحت جيدا فيما رواه لنا التاريخ عن أولئك الذين خرجوا على أبي بكر ، فلقبوا المرتدين ، وعن حروبهم تلك التي لقبوها حروب الردة

ولكن قسًا من نور الحقيقة لا يزال ينبعث من بين ظلمات التاريخ ،

وسيتجبه العاماء يوما نحو ذلك القبس ، وعسى أن يجدوا على تلك النار هدى
دونك حوار خالد بن الوليد ، مع مالك بن نويرة ، أحد أولئك
الذين سمّوهم مرتدين ، وهو الذى أمر خالد فضربت عنقه ، ثم أخذت
رأسه بعد ذلك فجعلت أثفية^(١) لقدر

يعلم مالك ، فى صراحة واضحة ، الى خالد أنه لا يزال على الاسلام ،
ولكنه لا يؤدى الزكاة الى صاحب خالد (أبى بكر)

كان ذلك إذن نزاعاً غير ديني . كان نزاعاً بين مالك ، المسلم الثابت على
دينه ولكنه من تميم ، وبين أبى بكر القرشى ، الناهض بدولة عربية
أمتها من قریش . كان نزاعاً فى ملوكية ملك ، لا فى قواعد دين ، ولا فى
أصول إيمان

ليس مالك هو وحده الذى يشهد لنفسه بالاسلام ، بل يشهد له به
أيضا عمر بن الخطاب ، إذ يقول لابی بكر « إن خالداً قتل مسلماً فاقتله »
بل يشهد له بالاسلام ايضاً ابو بكر إذ يجيب « ما كنت أقتله ، فانه تأول
فأخطأ »^(٢)

ودونك مثالا آخر ، قول شاعر منهم

اطعنا رسول الله ما كان يئتنا فيما لعباد الله ما لابی بكر
ايورثنا بكراً إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

(١) توضع القدر عند ما توقد عليها النار للطبخ فوق حجرين متقابلين ، ومن خلفهما حجر
ثالث ، فاذا لم يجدوا حجراً ثالثاً أسندوا القدر الى الجبل . والاثنية بضم الهمزة وكسرهما وكسر
الفاء ، الحجر توضع عليه القدر والجمع أثافى وأثاف . وربما الله بثالثة الاثافي أى بالجبل
(٢) راجع ذلك الحديث فى الجزء الاول من تاريخ أبى الفداء ص ١٥٧ ، ١٥٨
(٣) هو الخطيل بن أوس أخو الحصين بن أوس . تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٣

فأنت لا تجد في هذا إلا رجلاً ثائراً على أبي بكر ، منكراً لولايته ،
رافضاً لطاعته ، آيماً لبيعته ولكنه في الوقت نفسه يؤمن برسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ولا يعلن إباءه لشيء من الإسلام
ثم ألسنا نقرأ في التاريخ أيضاً ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه
قد أنكر على أبي بكر قتاله المرتدين وقال « كيف تقاتل الناس وقد قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله
إلا الله ، فمن قالها عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله » (١)
ذلك قليل مما بقي في الاخبار من صدق كاد يعنى التاريخ على أثره ،
ومن حق كاد يذهب بخبره . وابتحث فثم مزيد

(٧) لسنا نتردد لحظة في القطع بأن كثيراً مما وسموه حرب المرتدين
في الايام الاولى من خلافة أبي بكر لم يكن حرباً دينية ، وإنما كان حرباً
سياسية صرفة ، حسبها العامة ديناً ، وما كانت كلها للدين
ليس من عملنا في هذا المقام أن نبين لك تلك الاسباب الحقيقية ،
التي كانت في الواقع مثاراً لكثير من حرب الردة ، ولا نستطيع أن ندعى
اضطلاعنا بهذا البحث ، إن نحن حاولناه . ولكن يخيّل إلينا أنك قد تظفر
ببعض الاسباب الاساسية المهمة اذا أنت دققت النظر في أنساب وقبائل
الثائرين على أبي بكر ، وعرفت صلته من قریش ، جد البيت القائم بالملك ،
واذا أنت فطنت إلى سنن الله تعالى في الدول الناشئة ، والعصبيات المتغلبة
على الملك ، وكنت مع ذلك بصيراً بطبائع العرب وآدابهم ، ثم رزقت التوفيق

(٨) نحن نميل الى الاعتقاد بأنه قد ارتد بالفعل جماعة من المسلمين، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذلك شيء تكاد تقضي به سنن الطبيعة وأنظمتها التي عرفنا . وأسهل من ذلك ان نعتقد بأنه قد ادعى النبوة ، في حياة محمد صلى الله عليه وسلم وبعده وفاته ، متنبئون كذابون . وقد نرى في مشاهداتنا أن دعوى النبوة ليست بعيدة من ذهن المضلل الغوى ، اذا هو لقي من العامة انجذاباً ، وأغوى منهم صحابا واحبابا ، ولا شيء أسهل عند العامة من الايمان بنبوة ذلك المضلل الغوى ، اذا هو عرف كيف يغريهم بالضلال ، ويمدهم في الغي . لذلك نرجح انه قد وجد بالفعل ، في أول عهد أبي بكر ، جماعة ارتدوا عن الاسلام ، بوفاة النبي عليه السلام كما وجد من ادعى النبوة في قبائل العرب

وقد كان من أول ما عمل أبو بكر نهوضه لحرب أولئك المرتدين الحقيقيين ، والمتنبئين الكذابين . حتى غلبهم وقضى على باطلهم .

لا نريد البحث فيما اذا كانت لابي بكر صفة دينية صرفة جعلته مسؤولاً عن أمر من يرتد عن الاسلام ام لا ، ولا نريد البحث فيهما اذا كانت ثمت أسباب غير دينية حفزت لتلك الحرب عزيمة أبي بكر أم لا .

ومهما يكن الامر فلا شك أن أبا بكر قد بدأ عمله في الدولة الجديدة بحرب أولئك المرتدين . وهنا نشأ لقب المرتدين . نشأ لقباً حقيقياً ، لمرتدين حقيقيين ، ثم بقى لقباً لسكل من حاربهم أبو بكر من العرب بعد ذلك ، سواء آكانوا خصوماً دينيين ومرتدين حقيقة ، أم كانوا خصوماً سياسيين غير مرتدين . ومن أجل ذلك انطبعت حروب أبي بكر في

جملتها بطابع الدين ، ودخلت تحت اسم الاسلام وشعاره ، وكان الانضمام الى ابى بكر دخولا تحت لواء الاسلام ، والخروج عليه ردة وفسوقا .
(٩) ربما كانت ثمت ظروف أخرى خاصة بابى بكر ، قد ساعدت على خطأ العامة ، وسهلت عليهم أن يشربوا امارة أبى بكر معنى دينيا .
فقد كانت للصدیق رضی الله عنه منزلة رفيعة ممتازة ، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر في الدعوة الدينية ممتاز وكذلك كانت منزلته عند المسامین

وقد كان الصدیق مع هذا يحذو حذو الرسول ، ويمشى على قدمه ، في خاصة نفسه ، وفي عامة أموره ، ولا شك في أن ذلك كان شأنه أيضاً في سياسة أمر الدولة . فقد سار بها ، مبلغ جهده ، في طريق ديني ، ونهج بها ، على القدر الممكن . منهج رسول الله . فلا غرو أن أفاض أبو بكر على مركزه في الدولة الجديدة ، التي كان هو أول ملك عليها ، كل ما يمكن من مظاهر الدين

(١٠) تبين لك من هذا أن ذلك اللقب (خليفة رسول الله) مع ما أحاط به من الاعتبار التي أشرنا الى بعضها ولم نشر الى باقيها ، كان سبباً من أسباب الخطأ الذي تسرب الى عامة المسامین ، فخليل اليهم أن الخلافة مركز ديني ، وأن من ولى أمر المسامین فقد حل منهم في المقام الذي كان يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم
وكذلك فشا بين المسامین منذ الصدر الاول ، الزعم بأن الخلافة مقام ديني ، ونياية عن صاحب الشريعة عليه السلام

(١١) كان من مصلحة السلاطين أن يروجوا ذلك الخطأ بين الناس، حتى يتخذوا من الدين دروعاً تحمى عروشهم، وتذود الخارجين عليهم. وما زالوا يعملون على ذلك، من طرق شتى — وما أكثر تلك الطرق لو تنبه لها الباحثون — حتى أفهموا الناس أن طاعة الأئمة من طاعة الله، وعصيانهم من عصيان الله، ثم ما كان الخلفاء ليكتفوا بذلك، ولا ليرضوا بما رضى أبو بكر، ولا ليغضبوا مما غضب منه، بل جعلوا السلطان خليفة الله في أرضه، وظله الممدود على عباده. سبحانه الله وتعالى عما يشركون

ثم إذا الخلافة قد أصبحت تلصق بالمباحث الدينية، وصارت جزءاً من عقائد التوحيد، يدرسه المسلم مع صفات الله تعالى وصفات رسوله الكرام، ويلقنه كما يلقن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

تلك جناية الملوكة واستبدادهم بالمسلمين، أضلّوهم عن الهدى وعمّوا عليهم وجوه الحق، وحجبوا عنهم مسالك النور باسم الدين، وباسم الدين أيضاً استبدوا بهم، وأذلّوهم، وحرّموا عليهم النظر في علوم السياسة، وباسم الدين خدعهم وضيقوا على عقولهم، فصاروا لا يرون لهم وراء ذلك الدين مرجعاً، حتى في مسائل الإدارة الصرفة، والسياسة الخالصة،

ذلك وقد ضيقوا عليهم أيضاً في فهم الدين، وحجّروا عليهم في دوائر عينوها لهم ثم حرّموا عليهم كل أبواب العلم التي تمس حظائر الخلافة

كل ذلك انتهى بموت قوى البحث، ونشاط الفكر، بين المسلمين،

فاصيبوا بشلل ، فى التفكير السياسى ، والنظر فى كل ما يتصل بشأن
الخلافة والخلفاء

(١٢) والحق ان الدين الاسلامى برىء من تلك الخلافة التى يتعارفها
المسلمون، وبرىء، من كل ماهيأوا حولها من رغبة ورهبة، ومن عز وقوة.
والخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية ، كلا ولا القضاء ولا غيرها
من وظائف الحكم ومراكز الدولة . وانما تلك كلها خطط سياسية
صرفة ، لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ولا
نهى عنها ، وانما تركها لنا ، لترجع فيها الى احكام العقل ، وتجارب الامم ،
وقواعد السياسة

كما أن تدبير الجيوش الاسلامية ، وعمارة المدن والثغور ، ونظام
الدواوين لا شأن للدين بها ، وانما يرجع الامر فيها الى العقل والتجريب ،
او الى قواعد الحروب ، او هندسة المباني وآراء العارفين

لا شىء فى الدين يمنع المسلمين ان يسابقوا الامم الاخرى ، فى علوم
الاجتماع والسياسة كلها ، وان يهدموا ذلك النظام العتيق الذى ذلوا له
واستكانوا اليه ، وأن يبنوا قواعد ملكهم ، ونظام حكومتهم ، على احدث
ما انتجت العقول البشرية ، وأمتن ما دلت تجارب الامم على انه خير
أصول الحكم

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ،
وصلى الله على محمد وآله وصحبه ومن والاه